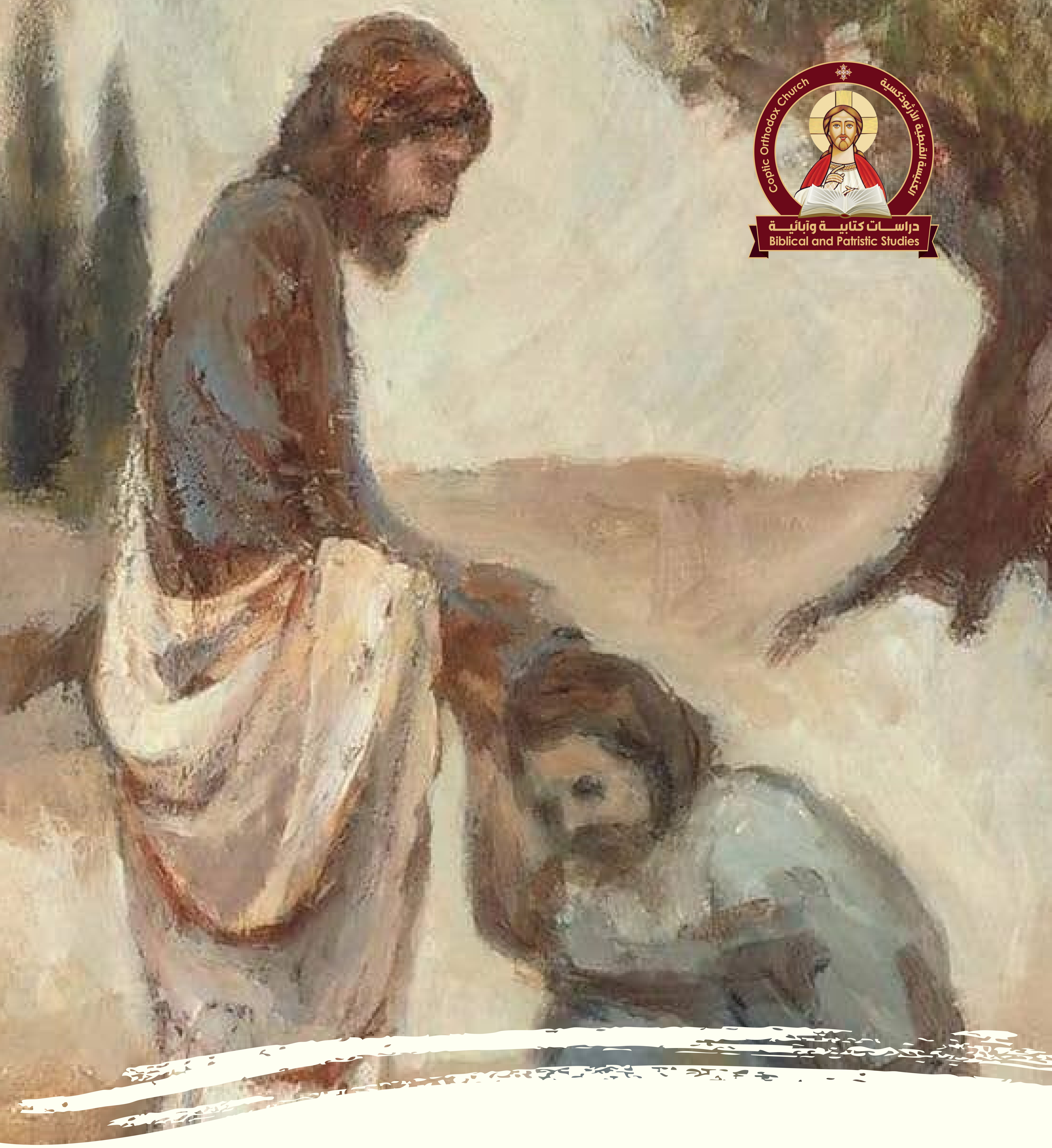

الكنيسة القبطية الأرثوذكسية
Coptic Orthodox Church
دراسات كتابية وآبائية
Biblical and Patristic Studies

معاملات الله معنا

القمص تادرس يعقوب ملطي

معاملات الله مع البشر تكشف عن حبه العجيب لهم مع اشتياقه أن يقيم من كل شخصٍ قائدًا حيًا له رسالته، بغض النظر عن جنسه أو جنسيته أو عمره أو ثقافته. يود أن يُشعِر كل شخصٍ أنه فريد في عيني الله. إنه أب سماوي كليّ الحب والحكمة والقدرة. ففي تعامله، تارة يُقدم لنا ما نحتاج إليه قبل أن نطلب وفوق ما نتوقع، وتارة يطيل أناته جدًا، فيُعطي وعدًا للبشرية بشيءٍ ما ويحققه أحيانًا بعد آلاف من السنين، ويقف البشر متسائلين: ما هي خطة الله نحونا؟ وما هي حكمته في هذا الأسلوب من التعامل؟

كمثالٍ إذ كان بنو إسرائيل متذمرين في مرارة يريدون الرجوع إلى مصر عوض ما حلّ بهم في البرية، قبل أن يفتح موسى فمه، قال له الربّ: "ما لك تصرخ إليَّ، قل لبني إسرائيل أن يرحلوا" (خر ١٤: ١٥). لقد سمع الربّ صرخات قلب موسى قبل أن ينطق بكلمةٍ!

مواقف عجيبة تكشف عن حكمة الله

١. عندما كسر آدم وحواء الوصية لم يستطيعا اللقاء مع الربّ، إذ قال آدم: "سمعت صوتك في الجنة فخشيت، لأني عريان فاختبأت" (تك ٣: ١٠). وعد الله علاج الموقف **بأن رأس الحيّة (إبليس) يسحقها الإنسان (أي المسيَّا) (تك ٣: ١٥)**. فكلما ظهر شخص فيه روح القيادة يتساءل البعض: ألعل هذا هو المسيَّا المُنتظر؟ وبعد أكثر من ٤٠٠٠ عامًا، ظن البعض أن يوحنا المعمدان هو المسيا الذي يسحق رأس الحية، فقال عنه القديس يوحنا: "لم يكن هو النور بل ليشهد للنور، وكان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتيًا إلى العالم (ليسحق رأس الحية)" (يو ١: ٨-٩). هكذا بعد زمنٍ طويلٍ جاء المسيَّا كلمة الله المتجسد، إذ "أخلى نفسه، آخذًا صورة عبدٍ صائرًا في شبه الناس. وإذ وُجد في الهيئة كإنسانٍ وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصَّليب" (في ٢: ٧-٨).

٢. بعث الربّ حلمين مقدسين ليوسف الصبي المحبوب من أبيه يعقوب (تك ٣٧: ٥-١١). إذ روى ما حلمه على أبيه وإخوته، انتهره أبوه وقال له: "ما هذا الحلم الذي حلمت، هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض؟" (تك ٣٧: ١٠). ومع هذا تعرض يوسف للقتل بواسطة إخوته، ثم تراجعوا وقرروا أن يبيعوه عبدًا لقافلة مصرية فينتفعون بالثمن. بيع عبدًا لفوطيفار، واتهمته زوجته بأنه أراد الاعتداء عليها، فدخل يوسف السجن ظلمًا. لم يعاتب يوسف الربّ بأن الحلمين لم يتحققا بل عاش في معاناة، ولا تشكك في وعود الربّ، بل قال لإخوته: "أنتم قصدتم بي شرًّا، أما الربّ فقصد بي خيرًا لكي يفعل كما اليوم ليحيي شعبًا كثيرًا" (تك ٥٠: ٢٠).

٣. وعد الله إبراهيم أنه يهب نسله أرض الموعد التي يطأها إبراهيم بقدميه. وترقب أحفاده وأحفاد أحفاده متى يحقق الربّ هذا الوعد. أخيرًا دخل نسله أرض كنعان بعد أكثر من ٥٠٠ عامًا على يد يشوع تلميذ موسى النبي ووُزعت أرض الموعد على الأسباط الذين هم نسل إبراهيم..

٤. وعدنا السيد المسيح: "اسألوا تُعطوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يُفتح لكم" (مت ٧: ٧). كثيرون يسألون: ويثقون أن الرب يحقق طلبهم، ويطول انتظارهم. بل ويتساءل البعض هل يسمعني الله؟ هل سيستجيب لطلبتي؟ متى؟

٥. أراد الربّ أن يحرر شعبه قديمًا من عبودية فرعون، وبالفعل وُلد القائد موسى، في ظروفٍ قاسية، فخبأته والدته في سفطٍ من البردي وطلته بالحمر والزفت، ووضعته بين الحلفاءً على حافة النهر (خر ٢: ٣). عاش موسى ٤٠ عامًا كابنٍ لابنة فرعون وتعلم حكمة المصريين في قصر فرعون، واضطر أن يهرب إلى البرية من وجه فرعون لأنه إذ انتهر مصري كان يقاوم عبراني طامًا، ضربه موسى ومات المصري. وعاش موسى في البرية ٤٠ عامًا يرعى الغنم. أخيرًا دعاه الربّ ليبدأ الخدمة وهو في الثمانين من عمره مع أن موسى قال في مزموره: "أيام سنيننا هي سبعون، وإن كانت مع القوة فثمانون سنة وأفخرها تعب وبلية" (مز ٩٠: ١٠). وكأنه بدأ الخدمة في شيخوخته بعد أن صار كمن هو في حكم الميت. خدم ٤٠ عامًا حتى بلغ ١٢٠ عامًا، وقام بأعمالٍ فائقة برعاية الربّ ونعمته القديرة. في هذه السنوات تمتع هو وشعب الله برعاية فائقةً خاصة في البرية، وتسلموا الناس خلال قائدهم موسى. ولم يدخل أرض الموعد سوى الجيل الذي وُلد في البرية بقيادة يشوع تلميذ موسى وكالب بن يفنى.

ماذا وراء خطط الله وطول أناته؟

نحن كبشرٍ نتعجل التمتع بوعود الله لكن الله بحكمته يقدم عطاياه في الوقت المناسب وبالطريقة التي يراها لائقة ونافعة. بركات طول أناة الله في تحقيق وعوده كثيرة نذكر منها الآتي:

١. في الفترة ما بين نوال الوعد الإلهي وتحقيقه، يشعر الإنسان أحيانًا كأن الوعد صار منسيًا، لكن الله يقدم **إشراقات إلهية غير متوقعة** تُعلن النور الإلهي الفائق في حياة المؤمنين وسط متاعبهم، فيرددوا ما قاله يوسف لإخوته: "أنتم قصدتم بي شرًا، أما الله فقصد بي خيرًا لكي يفعل كما اليوم. ليحيي شعبًا كثيرًا" (تك ٥٠: ٢٠).

٢. إدراكنا **العجز التام للخلاص بأيد بشرية.** انهار عالي الكاهن عندما سمع عن هزيمة شعب إسرائيل وموت ابنيه الكاهنين واستيلاء الأعداء على تابوت العهد. لكن الله بطول أناته أرسل في الوقت المناسب قادة مقدسين مثل صموئيل النبي وداود النبي والملك الصالح وغيرهما.

٣. في الفترة بين نوال الوعد وتحقيقه **يدرّب الله الكثيرين كي يدركوا أن لكل مؤمنٍ** دوره في بنيان ملكوت الله. المثل الواضح هم أطفال بيت لحم الذين استشهدوا فظن هيرودس أن الملك المولود (المسيَّا) حتمًا قد قُتل معهم. لكن إذ صُلب السيد المسيح ومات بالجسد، انطلقت نفسه إلى الهاوية فاستقبله أطفال بيت لحم الذين كانوا من سن سنتين فما دون، ووقف السمائيون والمؤمنون الراقدون في دهشة كيف صار هؤلاء الأطفال أبطالاً.

٤. في الفترة التي تبدو قاتمة للغاية حين يبدو كأن الشرّ انتصر على الخير، **يكشف الربّ عن فئة اللا معروفين** الذين يقومون بدور خفي حسب خطة الله دون أن يدركه الكثيرون. برز هذا حينما انهار إيليا النبي الناري بسبب مقاومة الملكة إيزابيل عبادة الله ودفعت رجلها أخاب ملك يهوذا ورجاله لتكريس حياتهم لإبادة عبادة الربّ والسجود للبعل. قال إيليا النبي لله: "قد غرت غيرة للربّ إله الجنود، لأن بني إسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذبحك وقتلوا أنبياءك بالسيف وبقيت أنا وحدي، وهم يطلبون نفسي ليأخذوها". وجاءت الإجابة: "أبقيت سبعة آلاف رجل لم يحنوا ركبة لبعل" (رو ١١: ٤). هؤلاء السبعة آلاف هم فئة اللا معروفين. الله في طول أناته بدا كمن لم يتحرك أمام تصرفات إيزابيل ورجلها وكل القيادات. لكنه تمجد بالكواكب المنيرة التي لم يعرفها أحد في المملكة، حتى إيليا النبي!

كثيرًا ما يتعجب المؤمنون على طول أناة الله، لأنهم لا يعرفون خطة الله الخفية. قيل إن أحد الرهبان الأتقياء كان مُرّ النفس فظهر له ملاك يسأله عن سبب مرارة نفسه. فأجاب أن مرض السرطان قد انتشر، ومات كثيرون بسببه. فبعض الأطفال فقدوا والديهم، وبعض الآباء والأمهات فقدوا أطفالهم بسبب السرطان، والعجيب أن بعض الشيوخ يتحملونه لمدة طويلة بينما شباب صغار إذ يصابون به يموتون بسرعة. عندئذ سأله الملاك أن يأتي معه، وانطلق به ليرى أعدادًا كبيرة متهللين للغاية من أعمارٍ مختلفة. أشار إليهم الملاك وقال له: هؤلاء جميعًا رجعوا إلى الربّ وانطلقوا إلى الفردوس بسبب إصابتهم بالسرطان. عندئذ مجد الراهب الربّ على صنع عجائبه في الخفاء.

القمص تادرس يعقوب ملطي